دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	العمران الأندلسي في العصر الإسلامي الوسيط بين الإيحاءات الطبيعية والإبداعات الفنية المعمارية: العصر الأموي أنموذجا
المصدر:	مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية
الناشر:	جامعة نواكشوط - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي:	عليلي، محمد
المجلد/العدد:	ع40
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2019
الصفحات:	29 - 52
رقم MD:	1009451
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	العمران الأندلسي، العصر الإسلامي الوسيط، الحكم الأموي، الثقافة العربية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1009451

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

العمران الأندلسي في العصر الإسلامي الوسيط
بين الإيحاءات الطبيعية والإبداعات الفنية المعمارية
(العصر الأموي أنموذجا)

The Andalusian urbanism in the medieval Islamic era
Between natural inspirations and architectural artistic creations
(the Umayyad era as a model)

د. محمد عليلي

جامعة ابن خلدون، تيارت – الجزائر

Dr.Alili Mohamed

University Ibn khaldoun ,Tiaret - Algeria.

البريد الإليكتروني: m.alili99@yahoo.fr

ملخص :

يتضمن هذا البحث دراسة للعمران الأندلسي في العصر الإسلامي الوسيط في عهد الحكم الأموي كنموذج لإشكالية بحثية تتمحور حول العلاقة بين طبيعة الأندلس كخصوصية جغرافية وبين سكانها كخصوصية اجتماعية وأثر هذه العلاقة على العمارة الإسلامية الأندلسية، من حيث الإبداع الفني المعماري الذي شكّل جمالية فنية ذات أبعاد بيئية ودينية واجتماعية، و عبر في نفس الوقت عن قوة الحس الجمالي للأمراء الأمويين خاصة و المجتمع الأندلسي عامة، من خلال مسجد قرطبة وقصور الأمراء وبيوت العامة والحدائق.

الكلمات المفتاحية: العمران الأندلسي ـــــ الحكم الأموي ـــــ الخصوصية الجغرافية ـــــ الخصوصية الاجتماعية ـــــ الجمالية الفنية ـــــ الحدائق.

Abstract

This present research includes a study of medieval Islamic Andalusian urbanism during the Umayyad rule era, as model within a research problematic centered on the relationship between the nature of Andalusia as a geographical specificity and its inhabitants as a social specificity ,and the impact of this relationship on Islamic Andalusian architecture, in terms of architectural artistic creativity, which constituted an artistic aesthetic with environmental religious and social dimensions .

And at the same time it expressed the power of aesthetic sense of the Umayyad princes in particular and the Andalusian society in general, through the Mosque of Cordoba and the palaces of princes, and the public houses and the gardens

key word : Andalusian urbanism- Umayyad rule- geographical specificity- social specificity- artistic aesthetic- the gardens.

تمهيد :

لا يختلف اثنان في أنّ الأندلس قدمت في العصر الوسيط أنموذجا رائعا في فنون العمارة الإسلامية، وقد توافرت مجموعة من العوامل ساعدت على ذلك النبوغ الفني المعماري الذي أسال حبر المسلمين و الغربيين على حد سواء من مؤرخين وجغرافيين ومهتمين بالشأن الحضاري المعماري، ولا شك أنّ طبيعة شبه الجزيرة الإيبرية شكلت أحد أهم هذه العوامل بما وفرته من مقومات طبيعية متنوعة، استفاد منها وتفاعل معها المجتمع الأندلسي ذو التركيبة السكانية المتنوعة.

إنّ هاتين الخصوصيتين؛ الطبيعية والاجتماعية كان لهما الأثر البالغ في مسار التطور الحضاري للأندلس، خاصة في المجال العمراني، وإذا كان الوجود الإسلامي قد انتهى في شبه الجزيرة الإيبيرية، أو لنقل في إسبانيا منذ 897هـــــــــــ/1492م، فإنّ الأثر العمراني لهذا الوجود مازال قائما حتى اليوم، من خلال تلك المعالم العمرانية التي تستقطب الملايين من الزوار سنويا،والتي تشهد في نفس الوقت على بصمات العبقرية الأندلسية الفنية المقاومة للزمن.

فهل الإبداع العمراني الذي حصل في الأندلس فرضته طبيعتها، أم أنه حصيلة لعبقرية فنية للإنسان الأندلسي؟ وهل كان الفن المعماري الأندلسي مظهرا من مظاهر الإفراط في الترف استجابة و مسايرة للحياة الاجتماعية المترفة لشريحة واسعة من الأندلسيين؟ أم أنه كان مرآة عاكسة للتطور الحضاري العام للأندلس ؟

1ـــــــــــمفهوم العمران:

قبل الخوض في موضوع العمران الأندلسي وصلته بالطبيعة والإنسان من حيث أن هذه الصلة هي أحد العوامل التي شكلت تميز الأندلس في هذا المجال ، لابد من الوقوف على مفهوم العمران لغة واصطلاحا .

لغـــــــــــــــــــــــــــــــــــــة: كلمة عمران بضم العين أو عمارة بكسر العين مشتقة من الفعل عَمَرَ الذي يعني سكن وأقام، فيقال عَمَرَ فلان منزله أي سكنه، بمعنى يعمره من العمارة بكسر العين، فهو يعمره عمارة وعمرانا، فهو عامر لمنزله ومنزله معمور به[1]، ويشتق منه أيضا فعل استعمر استعمارا، فيقال استعمره في مكان أي جعله يعمره[2] في مثل قوله تعالى: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**﴾[3]، يعني مكَّنهم الله ليقيموا في الأرض وسخَّر لهم ما فيها من خيرات ويسر لهم سبل الانتفاع بها، مع تحقيق المقاصد والغايات من تعمير الأرض وهي عبادة الله .

والعمارة، بكسر العين، تعني المبنى الكبير، وهي جمع عمارات أي بنايات[4]، و تعني أيضا الحي الكبير، وجمعها عمائر[5]، أما المعمار فهو كل بناء يتطلب الطلاء والزخرفة والتصميم الهندسي، وكل اللواحق التي تدخل في إتمام البناء، وتختص به الهندسة المعمارية التي تجعل من عملية البناء فنا هندسيا وفق مجموعة من القواعد التي ينتظم بواسطتها البناء[6]، وهو ما يعرف بالفن المعماري أي فن تشييد المنازل والمباني العمارة وغيرها[7]، و العمران هو كل بناء يعمر به البلد وما يتصل به من نشاط اقتصادي من تجارة وصناعة[8] ونشاط اجتماعي من مدارس ومساجد ومرافق عمة تعبر عن النشاط اليومي للإنسان.

اصطلاحا: يوجد تعريفات مختلفة لمصطلح عمران(Urbanism) بالانجليزية و(Urbanisme)بالفرنسية، يمكن الاقتصار على عينة منها لتحديد المعنى المطلوب، فالتعريف الأول لابن خلدون يشير فيه إلى أنّ العمران هو معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى للأبدان في المدن[9] والتعريف الثاني هو تعريف حديث يعني دراسة للطرائق التي تسمح بتكييف السكن وخاصة السكن الحضري مع متطلبات الإنسان[10]، والتعريف الثالث هو كذلك من التعاريف الحديثة يبين أنه فن تنظيم المجال الحضري والريفي للحصول على فعاليات كبرى وتحسين العلاقات الاجتماعية[11].

ومن هذه التعريفات يمكننا القول بأنّ العمران هو تقنيات وتصاميم البناء التي تسمح للأفراد والجماعات بأداء وظائفهم وتحسينها، وصولا لتحقيق الحاجات في إطار فضاء سكني هو المدينة التي تعبر بأشكالها المعمارية عن الهوية الحضارية للمجتمع.

والعمران، بهذا الشكل، هو المرآة التي تعكس التطور الحضاري للدول وللأمم عبر التاريخ، إنه الشاهد المادي الذي يفصح عما يمكن أن تصمت عنه صفحات كتب التاريخ من منجزات الإنسان في الماضي، ألم تستفز أهرمات مصر فضول الباحثين عبر العصور لاكتشاف ذخائر الحضارة الفرعونية رغم أنها موغلة في القدم ؟، وكذلك الحال بالنسبة للعمارة الإسلامية في الأندلس التي أيقظت مشاعر الإحساس بالجمال الفني المعماري لدى نخبة واسعة من المؤرخين والمفكرين الغربيين قبل المؤرخين العرب وراحوا ينفضون الغبار عن تاريخ هذه العمارة ليكتشفوا أبعادها وقيمها الإنسانية .

وقد قيل إن العمران هو أصدق ما يعبر به عن الحضارات الإنسانية في مختلف مراحل تطورها [12]إنه لسان الحضارة والمعبر عنها، لا بل إنه مقياس التقدم في أي أمة .

2ـــــــــ خصائص العمران الإسلامي :

لقد لخصت المدينة الإسلامية خصائص ومميزات العمران الإسلامي في كل جوانبه، اعتبارا من أنّ المدينة تمثل المظهر الحضاري للتجمع البشري بما تحتويه من عناصر عمرانية، وهذه العناصر تخضع لتخطيط يستجيب لمختلف النشاطات التي يمارسها الأفراد يوميا داخل المدينة بغية تلبية الحاجات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وسط مجال جغرافي آمن يضمن توفير الموارد الطبيعية التي تساعد على استمرار الحياة ويحقق بذلك غاية العمران وهو الاجتماع الإنساني الذي هو ضروري لطبع الإنسان المدني على حد تعبير ابن خلدون [13].

وانطلاقا من هذه المعطيات فإنّ العمران الإسلامي ينفرد بمجموعة من الخصائص تشكل هويته الحضارية وتعبر في الوقت نفسه عن منظومة قيم ثقافية ذات أبعاد دينية بالأساس، ويمكن تلخيصها في العناصر التالية:

ـــــــــــــ الدلالة الدينية والسياسية والاقتصادية لمركز المدينة: خضع مركز المدينة الإسلامية من الناحية الدينية لمنطق القيم الدينية التي تجسد الوحدة الروحية الإسلامية، من خلال بناء المسجد الجامع في وسطها، وقد كان يمثل نبض الحياة في العصور الإسلامية الأولى، فهو لم يكن يمثل مكانا للعبادة فحسب بل كان يعتبر مؤسسة جامعة للوظائف الدينية والسياسية والاجتماعية والقضائية والإعلامية أيضا [14]تُقضى فيها أمور المسلمين، وتبت فيها

القرارات السياسية، مثلما كان عليه مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، ورغم أنّ الجامع بدأ يتخلى عن هذه الوظائف تدريجيا لما شهدت مدن المسلمين نموا في نسيجها الاجتماعي و العمراني باستقلال الوظائف السياسية والاجتماعية والقضائية والإعلامية بمؤسسات خاصة بها، إلاّ أنه احتفظ بتلك المكانة العمرانية المقدسة التي تجعله أهم معالم المدينة، فصار كأنّ المسجد هو الذي يكون باعثا على وجود المدينة وليست المدينة هي التي تتطلب بناء مسجد، على غرار ما قيل في جامع عقبة بن نافع في القيروان بأنّ عقبة لم يبن مدينة لها جامع بل بنى جامعا له مدينة [15]، لأنّ المسجد يمثل رمزا تطبيقيا معماريا لعبادة الله وطاعته، من حيث أن عبادة الله هي أصل الغايات التي خلق من أجلها الإنسان واستخلف في الأرض، لذلك فقد استحوذ المسجد على اهتمام المعماريين المسلمين في كل العصور من خلال تلك التصاميم الهندسية التي أبدعوا فيها وشهدت بسعة خيال المهندس المعماري المسلم، لا بل إنّ الاستعانة بأمهر البنائين والمهندسين كانت تتم من قبل الخلفاء والأمراء الذين حرصوا على تشييد مساجد تلفت انتباه وإعجاب المقيمين في حواضرهم والوافدين عليها .

أما من الناحية السياسية فكان يتوجب على الخليفة أو الحاكم أن يقيم دار إمارته أو قصره في وسط المدينة قريبا من الجامع، لأنّه إمام المسلمين الأول يتمتع بالسلطة الدينية والزمنية ، كما كان الحال في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم من بعده، ولأنّ مجاورة دار الإمارة للمسجد الجامع من الناحية الجغرافية هي تكريس للمجاورة الوظيفية، أو الرمزية إن صح التعبير، وحتى يُشعِر هذا الحاكمُ الناسَ دائما أنه القائم بالدين والدنيا معا، وليُقِرَ في أنفسهم أنه على مسافة واحدة من ساكنة المدينة، وموقعه هذا يمكنه من مراقبة المدينة والاطلاع على أحوالها،وحتى تلك المدن التي لم تكن حواضر سياسية تمتعت بنفس الخاصية من حيث أن دار الوالي أو عامله لا بد أن تتوسط المدينة، غير أنّ مجاورة قصر الإمارة أو دار الإمارة للمسجد الجامع زالت عند بعض الخلفاء أو الأمراء، وهذا الاستثناء تدخلت فيه عوامل ذاتية بالدرجة الأولى، على غرار أمراء وخلفاء بني أمية في الأندلس الذين استقلوا بقصور بعيدة نوعا ما عن الرعية كما يأتي الحديث عن ذلك لاحقا في هذا البحث .

وبالطبع فإنّ الأجهزة الإدارية التي كانت متصلة رسميا بشؤون الحكم و وظيفيا بتنظيم شؤون الناس كان يتطلب وجودها في نفس المحيط الذي يتواجد فيه المسجد ودار الإمارة، وهو شكل يتيح للسلطة السياسية أن تعزز وجودها ونفوذها وصلتها أيضا بالرعية في المدينة، من جهاز للقضاء و للشرطة وللمحتسب، ناهيك عن الدواوين [16].

كما مثَّل السوق في وسط المدينة الإسلامية فضاء اقتصاديا يمد أهل المدينة بما يحتاجونه من أقوات ومستلزمات يومية وبضائع مختلفة، وكان الغرض من هذا الموقع الوسطي أيضا هو تسهيل عملية الوصول إليه للتجار الغرباء الوافدين على المدينة ببضائعهم المستوردة من أماكن بعيدة أو قريبة، لا سيما، بعد أن بدأت معظم المدن الإسلامية تشهد نموا عمرانيا كبيرا يتعذر معه معرفة معالمها الخاصة بسهوله.

ـــــــــــــــ المحيط السكني: هو المكان المخصص للأحياء السكنية، وغالبا ما كانت الاعتبارات القبلية والمذهبية بواعث تحدد إقامة أصحاب المذهب الواحد في حي بذاته، وكانت تاهرت الرستمية أنموذجا لهذه

البواعث تبعا لما يخبرنا به ابن الصغير بقوله:" حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين"[17]، وذكر هذه المساجد يدل على أنّ كل أصحاب مذهب اتخذوا لهم مسجدا واستقلوا به في حيهم، ولا يفهم من هذا انعدام الصلة بين هذه الأحياء بل كانت هناك علاقات تجارية وثقافية فيما يتصل بالشؤون العامة للمدينة، فصاحب المحل مثلا لا يتعامل مع هذا دون الآخر .

وجدير بالذكر أنّ الاحتفاظ بحرمة المساكن كان يخضع لاعتبارات دينية أخلاقية متصلة بالآداب الإسلامية التي ينظم شؤونها المحتسب من جهة، وتقوم على تصميم هندسي يحافظ على هذه الحرمة من جهة أخرى، فضلا عن وجود أزقة ضيقة تفتح عليها نوافذ غير متقابلة[18]، وهذه الأزقة الضيقة لا تسمح في العادة إلاّ بمرور أصحاب الحي، ومن نافلة القول الإشارة إلى أنّ هذه الأحياء وفرت لنفسها بعض المرافق العامة مثل الحمامات التي دعت حاجة المسلم إلى النظافة اليومية إلى وجودها بكثرة في المدن الإسلامية في العصر الوسيط، فعلى سبيل المثال لا الحصر وجد في قرطبة وحدها ما يزيد عن 300 حمام[19]، ومن الأمور التي كان يستحبها الناس في بناء المساكن هو توجيها نحو القبلة تماما مثلما توجه المساجد نحو القبلة حتى يسهل أداء الصلوات[20]، وربما لتحل البركة على البيت المتجهة نحو القبلة وهي رمز جغرافي لوحدة المسلمين.

ـــــــــــــ المحيط الإنتاجي:دعت احتياجات الناس إلى الغذاء و الملبس و مختلف الأدوات التي تتطلبها استعمالاتهم اليومية إلى وجود فضاء إنتاجي يلبي هذه الاحتياجات، فأنشئت في المدينة جهات خاصة لهذا الغرض هي عبارة عن ورشات وحوانيت ومصانع تحت مسمى الحرف، وقد نظمت بشكل يحفظ حقوق البائع والمشتري، ويحفظ أيضا لأهل المدينة راحتهم و صحتهم ،لذلك كان الحرص شديدا على وضع بعض المحلات التي تنبعث منها الروائح الكريهة أو الدخان أو تلك التي تصدر ورشاتها أصواتا مزعجة في مناطق تضمن إبعاد الضرر عن الناس[21] بما يشبه العزل، أما فيما يتعلق بصحة الناس وحقوقهم المادية فقد أوكل أمر مراقبة هذه المحلات إلى المحتسب، ونجد أن مصنفات الحسبة وكتب الفقه قد فصلت في ذلك تفصيلا كبيرا .

ـــــــــــــ الفضاء البيئي: إنّ عمق الصلة بين الفكر الإسلامي العمراني والبيئة تجسد أولا في الماء باعتباره العنصر الأول من العناصر المكونة للبيئة وهو ضرورة بيئية تقوم عليها الحياة، لذلك كان اختيار بناء المدينة يراعي مسألة توفر الماء، وقد نوه ابن خلدون بأهمية الماء إذ اعتبر وجوده قريبا من البلد، أي المدينة، من المرافق العامة العظيمة[22]، وحتى تلك المدن التي كانت سالفة الوجود سيق إليها الماء بتقنيات ضمنت تدفقه باستمرار مثل مدن الأندلس، ثم إنّ اهتمام المسلمين بإنشاء الحدائق بكل أنواعها داخل المدينة يدخل ضمن الرغبة في الاستئناس بالطبيعة و وعيهم بالبعد البيئي لهذه الفضاءات الخضراء، فضلا عن بعدها الجمالي والترفيهي من خلال توفير المتعة البصرية والسمعية لزائريها، لما تحتويه من أشكال وأنواع للنبات والورود، كذلك الحيوانات والطيور التي تصدر أصواتا تطرب سامعيها.

هذه القيم الجمالية كانت إحدى المكونات الأساسية في العمارة الإسلامية وهي قيم إسلامية مستمدة من القرآن الكريم تضمنتها آيات كثيرة مثل قوله تعالى ﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَاله مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**﴾، [23]كل هذا كان يضفي على العمران حيوية طبيعية تجعله كأنه عمران ناطق.

و يجب ألا تغيب عن أذهاننا مسألة غاية في الأهمية وهي أنّ عناية المسلمين بالحدائق كانت وراءها بواعث صحية انسجاما مع فكرة أنه كلما قويت عناصر الطبيعة في المناطق العمرانية وكانت المسيطرة كلما تحقق مستوى عال من البيئة الصحية داخل هذه المدن أو المناطق[24]، وقد انتشرت الحدائق في كل المدن الإسلامية، لا بل أصبحت إحدى المميزات البارزة في العمارة الإسلامية.

ـــــــــــــ تحصين المدينة : يشكل سور المدينة علامة بارزة في المدينة الإسلامية في العصر الوسيط، حيث كانت تحاط بسور شاهق الارتفاع تعلوه أبراج للمراقبة يدرأ عنها الأخطاء الخارجية ويحميها من كل طارئ، ويكون بعيدا عن الأحياء السكنية، وهو يصنف ضمن العمارة الحربية أو العسكرية، حيث يزود بوسائل حربية تمكن المدينة من الدفاع عن نفسها إذا ما تعرضت لهجوم عدو، فلا يصل إليها إلا بمشقة،وفي ذلك يذهب ابن خلدون بالقول:" وأن يكون وضع ذلك في متمنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلاّ بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها"[25].

وتزداد حاجة المدن إلى بناء الأسوار وتقويتها حسب موقع المدينة،والظروف السياسية التي تشهدها البلد، أو تلك الظروف التي ارتبطت بتأسيس الدولة في أول عهدها وما يترتب عنه من تأسيس للمدن الحواضر التي تكون بحاجة إلى تحصين لحمايتها من التهديدات التي تظل قائمة من قبل الناقمين على السلطة الجديدة مادام لم يشتد عود الدولة الفتية، ففي المدن الثغرية[26]، ونعني بها في المقام الأول المدن الأندلسية، يصير تحصين المدن بأسوار عالية واجبا شرعيا، إذ اعتبره الفقهاء بناء واجبا[27]، وحينما يزداد عدد سكان المدينة وتضيق مساحتها الجغرافية بساكنيها، تقام خارج السور محلات وسكنات على شكل ضاحية للمدينة وتسمى ربضا[28]، وقد يتحول الربض إلى مدينة قائمة بذاتها، كما كان الحال في مدن الأندلس على غرار أرباض قرطبة التي بلغت 21 ربضا[29]، ما يدل على أنّ هذه المدينة عرفت توسعا كبيرا جدا في نسيجها العمراني، ما اضطر إلى إنشاء أرباض خارجها.

إنّ توفير الأمن للمدينة كان في مقدمة الأمور التي يجب التفكير فيها حتى قبل بناء المدينة نفسها، حيث كان في الغالب يختار لها المكان الجغرافي الحصين والمنيع، فإنّ من المقاصد الشرعية للعمران الإسلامي حفظَ مصالح الناس الدنيوية والأخروية، ولا تحفظ هذه المصالح إلا بأمن مستتب يحقق للناس اطمئنانهم على أنفسهم ودينهم وأعراضهم وأموالهم، وهو ما يسمى بالمقاصد الضرورية أو الكليات الخمسة التي هي حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ العرض وحفظ المال[30]، وهذا يعني أنّ مختلف النشاطات التي يمارسها الناس مرتبطة بمدى إشاعة الأمن، سواء الأمن الداخلي أو الأمن الخارجي، وهذا من شأنه أن يدفع بالصناعة و التجارة إلى النماء

والانتعاش،والمعروف أنّ أقوات الناس وسبل تحصيلها مرتبطة بهما، وهكذا هي الغاية من تحقيق الأمن، ويستدل على ذلك بقوله تعالى﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ* إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** ﴾[31]، فهذه السورة تلخص الأبعاد الدينية والاجتماعية والاقتصادية للأمن، كما نتبين من الآية الأخيرة منها أنّ مع وجود الأمن ينتفي الخوف ومع وجود الرزق ينتفي الجوع، فيصير الأمر على نحو يجعل من الأمن شرطا لتحصيل الرزق ويجعل من الخوف سببا يؤدي إلى الجوع.

بينما إذا افتقدت المدينة أمنها فإنّ ذلك يلحق ضررا بالتجار والصناع لما يتعرضون له من نهب وسلب، لاسيما في أوقات الفتن كتلك الفتنة التي عصفت بقرطبة سنة 399هـــــ/1009م ،وقد كانت نكبة ألقت بضلالها على قرطبة حيث امتدت يد التدمير والتخريب إلى معالمها العمرانية وفي مقدمتها مدينة الزاهرة في مستهل الفتنة سنة 399 هـــــ/1009م ومدينة الزهراء سنة 401هـــــ/ 1011م[32]، ومن جملة ما قد ينزع بالنشاط الاقتصادي والاجتماعي للمدينة إلى الركود هو ما قد تتعرض له القافلة التجارية الخارجة من المدينة أو الداخلة إليها من تهديدات من قبل قطاع الطرق المتربصين بالقوافل طمعا في الغنائم، وبذلك يقعد التجار عن الحركة [33]، ويكون أثر هذا العامل على هؤلاء أعظم، إذ يكون باعثا على انتكاس التجارة الداخلية في المدينة، لأنّ ما يمد به تجار القوافل من بضائع وسلع لأصحاب المحلات هو مصدر للتعامل التجاري بين الناس، وإذا توقفت المكاسب لهذا السبب، قل الربح ومن ثم يتأثر العمران سلبا بهذه العوارض.

3ـــــ الخصوصية الطبيعية للأندلس :

اتفقت المصادر الإسلامية الجغرافية و الرحلية وحتى التاريخية التي أتت على ذكر الأندلس على تلك الخصوصية الطبيعية التي امتاز بها هذا الإقليم على باقي معظم الأقاليم الإسلامية في العصر الوسيط، من حيث أنها جمعت روائع الطبيعة من جبال شاهقات، ومن سهول منبسطة خصيبة، ومن أنهار كثيرة وافرة المياه دائمة الجريان جعلت الزهري وهو جغرافي من أبناء القرن السادس الهجري يصفها بقوله:"وبلاد الأندلس حسنة الهواء طيبة الماء طولها أربعون يوما يشقها أربعون نهرا، لا يوجد هذا في معمور الأرض إلا فيها "[34].

وأكبر نهر يجري في الأراضي الأندلسية هو نهر الوادي الكبير المعروف بالنهر الأعظم، وقد يكون أخذ هذه التسمية من طول مجراه وتعدد روافده، حيث تقدر المسافة التي يجري فيها هذا النهر 310 ميل[35] فهو يصل قرطبة بإشبيلية، كما يعد نهر شنيل الذي يخترق غرناطة أحد روافده[36]، أما من حيث تنوع المناخ وتأثيره على الغطاء النباتي، فعلى العموم يسود الأندلس مناخان؛ الأول مطير يمتد من الشمال مرورا بالشمال الغربي إلى الغرب، والثاني جاف قليل الأمطار يهيمن على جزء كبير من الأندلس، ولهذا نجد أنّ الكثير من المناطق الواقعة في الإقليم المطير تتميز بخضرة دائمة تصنعها الغابات والمراعي الطبيعية الخصبة[37].

والجدير بالذكر هو أنّ أرض الأندلس اختزنت معادن كثيرة في مختلف مناطقها، فلا يوجد موضع بها إلا وقد اشتهر بمعدن واختص به، ولما كانت الحاجة ماسة إلى المعادن النفيسة التي تحتاجها النساء في التزيين لتزداد أناقة وجمالا، و يحتاجها البناءون في الزخرفة ليزداد العمران بهاء، فإنّ أرض الأندلس قد لبت هذه الحاجة بما توافرت

عليه من نفائس المعادن، والتي كثر عليها الطلب داخل وخارج الأندلس، وبالاستئناس إلى المصادر التي نوهت بفضائل الأندلس في هذا الشأن نكتشف تنوع وضخامة هذه الثروات الطبيعية بالنظر إلى ذلك العصر طبعا.

إنّ المصادر التاريخية والجغرافية لا تبخل علينا بذكر هذه المعادن، فالمقري في نفح الطيب يشير إلى أنّ معدن الذهب وجد بكثرة في نهر لاردة، وبعد أن يذكر مجموعة من المعادن النفيسة والصناعية وغيرها يستدرك بالقول:" ومعادن الشبوب والحديد والنحاس أكثر من أن تحصى"،[38]ومن جانبه فإن البكري أسهب في تعداد المعادن التي تزخر بها الأندلس وكلها على قدر كبير من الأهمية والنفاسة ،حيث ذكر في كتابه "المسالك والممالك" الذهب والفضة والياقوت والقصدير والتوتيسا والكحل والحديد والرصاص والنحاس والمرجان [39].

كل ذلك كان له فضل،بعد الله سبحانه وتعالى، في مد الأندلس بخيرات ونعم كثيرة؛ زراعية ومعدنية، وقد ظهرت أثارها على يوميات الفرد الأندلسي، من حيث أنّه استفاد من هذه المعادن في استخدامها في كل ما يتصل بفنون العمارة، من تجميل وتزيين وتتحيف المباني بمختلف أنواعها، لاسيما المساجد والقصور، فضلا عن استفادة النساء الأندلسيات من الحلي للتزيين والتأنق، وكانت الاستفادة كذلك من ينابيع الجبال التي تزود المدن بالماء الشروب و الماء الذي يوصل إلى الحدائق لسقي النبات والأشجار.

لقد وُفِّق البكري في جمع مزايا الأندلس وخصال أهلها في قوله:"الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها"[40].

أما الشاعر ابن خفاجة(ت. س 533ه/ 1038م) فإنّه يلخص طبيعة الأندلس الساحرة في قصيدة جميلة بجمال وصفها لهذا الإقليم وهذه بعض أبياتها :

يـــا أهـــــــــل أندلـــــــــــس لله

دركـــــــــــــــــــــم ماء وظـــــــل وأنهـــــــــــــــار

وأشجـــــــــار

مـــــــا جنـــة الخلـــــــــــد إلا في ديـــــــــاركـم ولو

تخيرت هذا كنت أختـــــــــار

لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار [4]

4ـــــــ البيئة الاجتماعية الأندلسية وأثرها على البيئة العمرانية:

إذا كانت الأندلس الإسلامية قد امتازت بخصوصية طبيعتها، فإن تركيبتها الاجتماعية هي الأخرى شكلت في حد ذاتها بيئة متميزة كان لها الأثر البالغ في تشكيل نسق ثقافي عمراني أندلسي الطبع، ورغم أنّ العناصر الاجتماعية التي كانت تبدو للوهلة الأولى غير متجانسة من حيث الصراعات السياسية والفتن التي كانت تلون المشهد السياسي من فترة إلى أخرى، إلا أنّ ذلك لم يمنع من إيجاد ثقافة مشتركة أسهم أصحابها في إضافة لبنات حضارية عمّقت

الشعور بالشخصية الحضارية الأندلسية، نلمس ذلك في التسامح الديني الذي طبع الحياة اليومية للأندلسيين على اختلاف مشاربهم الثقافية وأصولهم العرقية.

أـــــ التسامح الديني وأثره على النسق العمراني :

إنّ أول مظاهر التسامح الديني التي خلّدها تاريخ الأندلس في المصادر الإسلامية تلك التي اتصل فيها المسلمون بالنصارى الإسبان فيما يتصل بيوميات الطرفين ويتعلق الأمر بأماكن العبادة، فكنيسة قرطبة المسماة "شنت بنجت" sant vincent، [42]حُوِّل جزء منها إلى مسجد للمسلمين، وقد اجتهد حنش بن عبد الله الصنعاني رفقة أبي عبد الرحمن الحبلي في وضع قبلته، [43]وأما الجزء الباقي فقد احتفظ به النصارى كنيسة لهم، ويبدو أن الدافع إلى اختيار هذه الكنيسة لإقامة مسجد جامع في جزء منها هو وجودها في وسط مدينة قرطبة، إذ كان توسط المسجد الجامع من أخص خصائص المدينة الإسلامية في العصر الوسيط وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

لكن مع مرور الوقت لم يعد هذا المسجد قادرا على استيعاب العدد المتزايد من المصلين، وهو ما دعا الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل إلى التفاوض مع النصارى لشراء الجزء المتبقي من الكنيسة، فتنازلوا له عنه مقابل ثمن مغر، قيل إنه بلغ 80 ألف دينار[44]، سمح لهم ببناء كنيسة بظاهر قرطبة[45]، ليبدأ سنة 168هـ / 783م[46] في بناء هذا المسجد على أسس جديدة ماعدا المحراب الذي أبقي عليه عبد الرحمن الداخل، وحافظ عليه أيضا عبد الرحمن الأوسط(206ـــــــ238هـــــــ/ 822ـــــــ852م) [47].

إنّ هذا المسجد الجامع ظل مرتبطا باسم عبد الرحمن الداخل، رغم الإضافات التي قام بها خلفاؤه من بعده، ويجب التنويه هنا إلى أنّ هذه التوسعات التي شهدها هذا الجامع وغيرها من مساجد المدن الإسلامية هي مؤشر واضح على زيادة عدد سكان المدينة والتالي زيادة النسيج العمراني.

ويجب الالتفات إلى مسألة مهمة ونحن نتحدث عن المساجد في الفترة المبكرة من تاريخ الأندلس الإسلامي، إلى أنّ الكثير منها كان في الأصل كنائس حولت إلى مساجد،[48] وقد حافظت على هيكلها المعماري العام، والسبب يعود إلى الانشغال بالفتح أولا وبالفتن التي تلت عملية الفتح، فلم يكن الوقت يسع المسلمين لبناء مساجد جديدة، فهي مسألة توفير للوقت، زد على ذلك أنّ الكثير من النصارى غادروا المدن التي فتحها المسلمون، أو أنهم اعتنقوا الإسلام فلم تعد لهم حاجة بهذه الكنائس.

ومن نافلة القول الإشارة إلى بناء مدينة الزهراء والذي استدعى من أجله الخليفة عبد الرحمن الناصر(300ـــــــــــــ350هـ/912 ـــــــــــ961ـــم) [49]أمهر المهندسين كان من بينهم مهندسون من القسطنطينية،[50] وهذا دليل على التسامح الديني، وفي سياق متصل يشير السيد عبد العزيز سالم في كتابه "في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس"إلى أنّه لما استقر الحال بالمسلمين في الأندلس شملوا رجال الفن والبناء الإسبان برعايتهم واستخدموهم في تشييد عمائرهم وزخرفتها بعد أن كيفوها وفقا لما يقتضيه دينهم وتقاليدهم[51]، ويضيف إلى أنّ العمارة الأندلسية الإسلامية نمت عبر العصور بنمو المجتمع وقد أخذت بتقاليد المشرق وتقاليد المغرب والتقاليد المحلية،[52](يعني أهل البلد الأصليين).

وانطلاقا من هذه المعطيات يمكن القول: إنّ العمارة الإسلامية استجابت في بداية أمرها بوجه عام لروح التسامح، فقد اقتبست أنماطا معمارية كانت تابعة للمناطق التي حل بها المسلمون بعد الفتح ومنها الأندلس، لكنها هذّبتها [53] بما يتماشى مع الخصوصية الدينية للمجتمع المسلم، ومع مرور الوقت انفرد الطراز المعماري الإسلامي بشخصيته المستقلة، ولعل العمارة الأندلسية تعد أنموذجا للفن المعماري الإسلامي الوسيطي من حيث التأثر والتأثير، عبرت بطريقة فنية على أنّ الإحساس بالجمال هو مشترك إنساني .

ب ـــــ المساكنة العمرانية (حسن الجوار):

لا يخفى على الباحث في تاريخ الأندلس في العصر الإسلامي ما تمتعت به الجالية اليهودية من مكانة عالية في كنف الحكم الإسلامي، فقد قرّبهم الحكام والأمراء لما عرف عنهم من مهارة في الطب والتجارة وغيرها، حيث شكّلوا شريحة اجتماعية مارست طقوسها الدينية بكل حرية، مستفيدين من التسامح الديني الإسلامي، يتجلى ذلك في البيع التي شيدوها في مختلف مدن الأندلس منها الكنيس اليهودي بقرطبة الذي أقاموه بها سنة 1314م، وما يميز هذا الكنيس هو أنّه مكسو بالتوريقات [54]الإسلامية المحفورة في الجص[55]، على أنّ الحياة اليومية لليهود وعلاقتهم مع المسلمين لم تكن دائما على قدر كبير من الانسجام وتبادل الاحترام بل كانت تشوبها من حين لآخر تشنجات نظرا لتجاوزات البعض منهم والتي رأى فيها المسلمون اعتداء معنويا وتجاوزا للحقوق التي منحت لهم، ويستدل المؤرخون ببعض النوازل التي تناولت هذا التذمر،على غرار تلك النازلة التي تشير إلى أنّ يهوديا اشترى من مسلم دارا في حي يسكنه المسلمون غير أنّه لم يراع حرمة جيرانه وآذاهم بشربه للخمر حتى أنهم امتنعوا عن ملء دلائهم من بئر بنفس الحي كان يشاركهم فيها [56]، ومن هذه الحادثة ندرك أنّ الأصل في علاقات المسلمين مع اليهود كان حسن الجوار، إلا ما كان يبدر من تصرف مشين من قبل اليهود يعكر صفو هذه العلاقة .

ومن جهة أخرى فإنّ كتب النوازل تمدنا بمادة تاريخية حول تلك العلاقات التي جمعت النصارى والمسلمين في المدن الأندلسية، والتي تتلخص في مساكنة بعضهم البعض، أي التجاور في المساكن والمحلات التجارية والذي فرضته التعاملات اليومية، أو على الأصح، الذي دعت إليه حاجة كل طرف للطرف الآخر، فالواضح أنّ مساكنهم أو أحياءهم كانت مجاورة للمسلمين، أو على الأقل، لم تكن بعيدة عنهم،يبدو ذلك من خلال النشاط التجاري اليومي للنصارى من بيع لبعض المواد كالزيت والخبز وغسل الثياب للمسلمين[57]، ما يعني أن هناك نسيجا عمرانيا يجمع كل الأطراف في هذه المدن، وما يستدل به في هذا الأمر أنّ الفقيه عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد ابن محمد القرطبي الملقب بأبي الحصار والمعروف بمولى بني فُطيس(ت.س 422هـ/ 1031م)[58]كان له جار نصراني يقضي حوائجه[59]، ولمّا كان هذا السلوك صادرا من فقيه، فهو دليل قوي على درجة التسامح التي طبعت المشهد الاجتماعي للأندلس .

5ـــــ تجليات الثقافة البيئية والجمالية الفنية في العمارة الأندلسية:

من المسلم به أنّ الطابع الجمالي في العمارة الأندلسية، على اختلاف أنواعها، أثبت قوة حضوره، فأدرك معظم مفاصل المباني الخاصة أو العامة التي شيدت في مختلف مراحل العصر الإسلامي في الأندلس، لا سيما عهد

الأمويين، الذي امتاز بتلك الانطلاقة الحضارية الإسلامية التي قدمت نموذجا لما يمكن أن يستوعبه الفكر الإنساني من مفاهيم جمالية حققت إلى حد ما المقاصد والغايات للعمران الأندلسي، واعتبارا من أنّ العمارة، كما يقال هي أم الفنون[60]،لأنها تجمع كل المهارات الفنية، ومن أنّ وظيفة الفن هي صنع الجمال[61] فقد استوحى المهندس المعماري والبنّاء المسلم الزخرفة الفنية من الطبيعة، وهي عناصر تجعل المبنى أو المسكن جزءا من الطبيعة نفسها من حيث أنّ الإنسان نفسه هو جزء من الطبيعة [62]يتأثر بها ويؤثر فيها، وقد عبرت عنها الأشكال الهندسية والنباتية وحتى الحيوانية، التي زينت جدران المباني، وبطبيعة الحال لم تشذ الأندلس عن هذه القاعدة، لا بل إنها تفوقت في ذلك أيما تفوق، وقد طبقت هذه الميزة في العمارة الدينية والعمارة المدنية على حد سواء، فكان للجمال حظ وحضور قوي في هذه العمارة .

أ ـــــ المساجد:

لا مواربة في القول: إنّ فن العمارة الإسلامية يدين للمسجد بالفضل، ذلك أن النواة الأولى للعمران الإسلامي انطلقت من المسجد،(المسجد النبوي في المدينة المنورة)، فهو يعد أول المعالم العمرانية التي كانت تختط في المدينة الإسلامية، وبما أنّ المسجد في العصر الإسلامي الوسيط كان يضطلع بمهام تربوية وثقافية واجتماعية وقضائية، إضافة إلى وظيفته التعبدية طبعا، فإنّ ذلك عد من العوامل الوجيهة في بنائه وسط المدينة لسهولة الوصول إليه، فسمي المسجد الجامع، أي الذي يجمع الناس في صلاة الجمعة، أما مساجد الأحياء الأخرى فقد خُصِّصَت للصلوات الخمسة حتى سميت بمساجد الخمسة[63].

وقد اعتنى الحكام والأمراء طوال فترة الوجود الإسلامي في الأندلس بالجمالية العمرانية للمساجد، بدأ هذا الاعتناء مع الأمراء الأمويين ثم قلدهم فيها الحكام اللاحقون، رغم إنكار جمهور الفقهاء لمسألة زخرفة المساجد والمبالغة فيها[64]، لما فيها من إشغال المصلين عن صلاتهم التي هي الأصل والجوهر في وجود المسجد ذاته ، فضلا على أنّها من دواعي ومظاهر الترف الذي يجب أن يصرف عن المساجد، وهذا يعيننا على القول بأنّ التأنق والتفنن في المباني سواء كانت مدنية أو دينية تجاوز المسألة الفقهية أو المحظور الفقهي عند الأندلسيين، وتحديدا الحكام منهم، فلم يتورعوا مثلا عن بناء صنابير مياه في الحدائق أو الحمامات تنتهي بتماثيل حيوانية[65]، وهذا الطبع المتحرر هو الذي ميز المجتمع الأندلسي في كل المجالات تقريبا، وهو الذي كان وراء ما اعتبره الأمراء إبداعا بكل أشكاله، وتنافسوا فيه بصرف النظر عن الضوابط الشرعية.

إنّ بصمات الإبداع الفني الهندسي لجامع قرطبة كشفت للأجيال المتعاقبة عبقرية وروعة التصميم، لذلك لم يكن من الغريب على مؤرخ مثل السيد عبد العزيز سالم، وهو مختص في التاريخ الأندلسي الإسلامي، أنّ يقرر حقيقة تاريخية مفادها أنّ جامع قرطبة يمثل المنبع الرئيسي الذي ارتوت منه فنون الإسلام في المغرب والأندلس في عصوره المختلفة، ولهذا أصبح هذا الجامع أنموذجا معماريا لمساجد المغرب والأندلس"[66]، فمما نقله أحمد فكري في كتابه" المسجد الجامع بالقيروان" ما يفيد أنّ جامع القيروان في مراحل تطوره فيه بعض من الاقتباسات الزخرفية من جامع قرطبة[67]، رغم أنّ هذا المسجد كان أسبق من جامع قرطبة في البناء .

كما أنّ المهارة والإبداع الفنيين المتصلين بجامع قرطبة يتجليان في العلاقة التي ربطت بين الطبيعة والإنسان[68] في نسق هندسي قل نظيره، فمقصورة محرابه يؤدي إليها باب زخرفي معقود على هيئة فرس، ويستند العقد إلى قاعدتين من الرخام، أما أعلاه فهو مزخرف بالكتابة العربية، وتتعدد ألونه من اللون الأزرق وهو اللون الغالب إلى اللون الذهبي واللون الأحمر، أما الأجزاء السفلية فقد كسيت بالرخام الأبيض[69]، ومن هذا يتبين أن الزخرفة الفنية لهذا الجامع قد استفادت من عناصر مختلفة من الطبيعة، سواء من حيث مادة البناء، أو من حيث الألوان المتناسقة، ومن خلال وصف الحميري لجزئيات البناء في هذا الجامع يتضح أن معدن الذهب استعمل بكثرة لتذهيب مقصورته وجدران محرابه، مع وجود الفسيفساء واللون الفضي[70].

ثم إنّ شساعة هذا الجامع يستدل عليها بكثرة أبوابه حيث وصل عددها في عهد المنصور بن أبي عامر(327-392هـ / 938 - 1002 م) 21بابا [71]، وواجهات هذه الأبواب كانت مزدانة بالزخارف الهندسية والنباتية [72]، وبالنسبة لعدد النوافذ، فقد ورد في كتاب ابن غالب أنّ بالجامع 54 لوحا[73]، أي نافذة، ولا شك أنّ هذا العدد من النوافذ كان يتناسب مع كبر مساحته حتى توفر له الإضاءة والتهوية.

ويذكر المؤرخون أنّ عدد المصابيح التي التي كانت توقد للإنارة كان يربو عن 113ثريا،أكبرها تحمل 1000مصباح[74]،وبلا شك فإنها زادت في بهائه وروعته من الداخل، هذا يعني أنّ كل أمير كان يترك بصماته على هذا الجامع من حيث الإضافات التي كان يضيفها له .

والحقيقة التي لا يماري فيها أحد هي أنّ مسجد قرطبة أصاب من جمال العمارة الإسلامية ما لم يصبه غيره من المساجد في ذلك العصر، فقد فرض نفسه على المؤرخين والمفكرين وأصحاب الفن المعماري، المسلمين منهم والأوروبيين على حد سواء، فأفردوا له مساحات شاسعة في صفحاتهم للحديث عن إعجابهم به وانبهارهم بتصاميمه الهندسية والجمالية،حتى أنّ واحدا من الأساتذة المتخصصين في الفنون الجميلة، وهو أولغ غرابار، يرى أنّ هذا الجامع جمع غايات البناء الجمالية من حيث أنّ له مؤثرات بصرية ذات وقع حسي يشيع البهجة في نفوس الزائرين والذين يستعملونه[75](يقصد المصلين)، ويستدرك السيد عبد العزيز سالم في هذا السياق بالقول:إنّ الذي أنقذ جامع قرطبة من التخريب الذي واكب انتصار الإسبان في حركة الاسترداد هو ما احتواه من ابتكارات معمارية وثروات زخرفية نالت إعجابهم [76]، فكأنما هذا الجامع قد امتلك في ذاته وسائل معنوية قوية للدفاع عن نفسه .

مما يدعوننا إلى القول إنّه لو لم يبن المسلمون في الأندلس إلا جامع قرطبة لكان ذلك كافيا لهم، ولم يكن لينتقص من روعة وجمالية فن العمارة الأندلسية، فرغم أنّ هذا الجامع مصنف ضمن العمارة الدينية إلاّ أنّه ظل مرتبطا بالسلطة الأموية الحاكمة في الأندلس، فقد استمدت منه مجدها وحسن تذوقها للفن المعماري، وقد عبر شارلكان ـــــــــ كارلوس الخامس ـــــــــ (1500ـــــــــ 1558م) عن أسفه الشديد حينما مر بقرطبة وعاين الجامع، فندم على ما كان منه من موافقته على هدم جزء منه نزولا عند رغبة أحد الأساقفة في بناء كتيدرائية ذات الطراز القوطي في وسط الجامع قبل أن يراه، فقال:" لو كنت قد علمت ما وصل إليه(يقصد الجامع)

لما كنت قد سمحت بأن يمس البناء القديم، لأن ما بنيتموه موجود في كل مكان وما هدمتموه فريد في العالم" [77]، هذا التصريح في حد ذاته يقوم دليلا على ما وصلت إليه جمالية الفن المعماري الإسلامي في الأندلس.

اختصت العمارة الإسلامية في العصر الوسيط، مشرقا ومغربا، بالأشرطة الكتابية التي كانت تمثل إضافات فنية زخرفية جمالية على جدران الأبنية، وقد نالت المساجد حظها الأوفر منها، على غرار جامع قرطبة، وكانت في العادة عبارة عن آيات قرآنية وأحاديث نبوية أو أدعية، تكتب على الرخام أو الخزف أو الخشب أو الحج[78]، وقد أضفت على الجدران حيوية جعلت من العمران كأنه بناية ناطقة، في نسق معماري اجتمعت فيه مهارة الخطاطين والبنائين، وهي من جهة أخرى تحيل المشاهد إلى أجواء روحانية تعمل على راحته النفسية مما تقدمه من آيات وأحاديث متصلة بحياته اليومية داعية إلى تقويم سلوكه بما تحمله من قيم دينية تربوية[79]، وهي في كل هذا كأنما تخاطب وجدان الإنسان وتحرك أحاسيسه نحو الاطمئنان والارتياح .

ب ـــ قصور الأمراء:

تمكن عبد الرحمن الداخل من تأسيس سرح سياسي مجيد في الأندلس على أنقاض دولة أسلافه في المشرق ببراعته وذكائه وحنكته السياسية، ولما استتب له الأمر، تفرغ لتشييد القصور والمنتجعات،على نحو ما كان عليه أجداده في الشام، وقد اجتهد هو ومن خلفه من أبنائه الأمراء في اصطناع بيئة اجتماعية مشابهة لتلك التي ميزت الحياة الخاصة لخلفاء بني أمية في المشرق، وقد ساعدتهم طبيعة الأندلس في التمتع بالمباني الفاخرة، تلك القصور التي أبدعوا في بنائها أيما إبداع، واختاروا لها أحسن المواقع الطبيعية، ومنها قصر الدمشق الذي أمدوه بكل ما يستحقه من تنميق وإبداع فني عمراني، وتسميته بهذا الاسم دليل على ذلك الحنين الذي لم يفارق أمويي الأندلس.

ولم يكتف بهذا القصر بل شيّد قصرا آخر في شمال غرب قرطبة سماه "منية الرصافة" تشبيها برصافة جده هشام بن عبد الملك(105ـــــــــــ125 هـــــ/ 724ـــــــ743م ، فاتخذ منها منتجعا للراحة بعيدا عن ضوضاء السياسة، فكان أكثر مكوثا بها، وقد بلغ اهتمامه بها أن جلب لها من صنوف الأشجار المثمرة والنبات والفواكه والورود ما لم يكن للأندلسيين به سابق معرفة، ومن هذه الأشجار الرومان السفري والمنسوب إلى رجل يدعى سفر بن عبيد الكلاعي ، ومفاد ذلك أنّ هذا الأخير كان من جملة الرجال الذين حضروا إحدى مجالس عبد الرحمن الداخل فأعطاه جزءا من رمان جلب له من رصافة الشام، راق له مذاقه ، فعالج عظمه وذهب به إلى أحدى القرى ثم غرسه وتعهده بالرعاية حتى أثمر رمانا شبيها بذلك الذي جلب من رصافة الشام ، وهذه هي قصة انتشاره في بلاد الأندلس وتسميته بالسفري، حسب ما ورد في نفح الطيب في جزئه الأول[80] ،وفي ذلك حفظا لذكرى أجداده ومجدهم، هذه الذكرى التي لازمت عبد الرحمن الداخل طوال حياته، ما يجعل الباحث أو القارئ يدرك أنّ مثل هذه المنجزات لم تكن إلا تنفيسا وترويا وتعويضا عما لاقاه عبد الرحمن الداخل من مشاق نفسية وجسدية في أثناء فراره من المشرق إلى الأندلس، أضف إلى ذلك شعوره بالغربة في بلد لم تسقه إليه إرادته بل اضطره مصيره إلى السفر إلى المجهول، فكأنما منية الرصافة اختصرت،بما فيها من جمال، مجدا قديما في الشام انبعث في الأندلس، وأعطت لعبد الرحمن الداخل حياة جديدة قهر بها متاعبه.

والظاهر أنّ كل أمير من الأمراء الأمويين اكتسب رغبة بالفطرة أو بالعادة في تشييد القصور رغبة في وضع بصمته ومشاركته في تخليد اسمه بهذه الآثار العمرانية التي عكست بالفعل ذوقا فنيا ومعماريا جميلا، بصرف النظر عن مظاهر الترف المبالغ فيها التي رافقت هؤلاء الأمراء في بناء قصورهم هذه، حتى أنّ الكثير من الفقهاء أنكروها عليهم، فهذا منذر بن سعيد القرطبي (ت.س355هـ/966م) يعظ الخليفة عبد الرحمن الناصر(316هـ/ 929م-350هـ/961م)، فيُذَّكره بالموت ويحذره من التعلق بالدنيا لكثرة ما أنفقه على بناء مدينة الزهراء، وما فيها من قصور[81]، للعلم فإن مدينة الزهراء بنيت سنة 325هـ/936م[82]،في عهد الخليفة المذكور على بعد حوالي 4 أميال من الشمال الغربي من قرطبة[83]، حيث اتخذها عاصمة لحكمه، وحتى يجعل منها تحفة فنية في حد ذاتها جلب لها أنواعا من الرخام بعدد ألوانه، فمنها الأبيض والوردي والأخضر، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل احضر حوضا من القسطنطينية منقوشا بالذهب وضعه في وسط قصر المؤنس وهو أحد قصور هذه المدينة [84].

ومن هذه القصور نذكر قصر المؤنس وقصر الزهراء وقصر الخلافة، وقد سقفت بالقرميد المذهب وأقيمت بها أعمدة وبنيت جدرانها من المرمر والرخام[85]،والأبيات التي نسبت إلى الأمير عبد الرحمن الثالث في شأن العمارة فيها ولع الأمراء بتشييد ما يفتخر به على مر العصور حيث يقول :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبألسن البنيان

إنّ البناء إذا تعاظم قدره أضحى يدل على عظيم الشأن [86]

يقرر ابن خلدون في مقدمته أنّ ازدهار العمران والتفنن والتأنق فيه من مباني ومنازل وملابس وفرش هو مظهر من مظاهر الترف وهو من عوائد العمران البشري[87]، فاهتمام الأمويين بمظاهر الترف والتفاخر والأبهة في مبانيهم الخاصة وفي جملة المباني التي كانت على عهدهم في الأندلس كما في الشام يتسق مع نظرة ابن خلدون، و له ما يفسره تاريخيا، فإذا بحثنا في أصولهم نجد أنّه كان لأجدادهم خصلة من الأبهة والافتخار وحب الزعامة وجدت فيهم قبل الإسلام، ولا أدل على ذلك أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم في أثناء فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة جعل من يدخل بيت أبي سفيان آمنا على نفسه، وفي ذلك رفع من شأن أبي سفيان وحفظا لمكانته بين قبيلة قريش وحتى يكسب قلبه للإسلام لعلمه بنفسية هذا الأخير في الفخر والاعتزاز بالنفس.

ج ـــــ بيوت العامة :

كان البيت أو المسكن[88] في المدينة الإسلامية في العصر الوسيط يستجيب لعدة اعتبارات تراعي خصوصية المجتمع المسلم بالدرجة الأولى، مع ما يتطلبه البيت من راحة وسكينة وجمالية كذلك، ولم يشذ الأندلسيون عن هذه القاعدة، فقد كان تصميم البيوت يتماهى مع هذه الشروط، إن صح التعبير،فغرف المنزل تحيط بفناء وهو صحن يتوسط الدار، تتجه أبوابها ونوافذها إليه، وكان الاهتمام بالواجهة الداخلية المطلة على الفناء يظهر من خلال

الاعتناء بزخرفته اعتناء كبيرا، بينما الواجهة الخارجية لا تحظى في العادة بنفس الاهتمام إلا في بيوت الميسورين كالتجار وغيرهم.

على أنّ نظافة المحيط الخارجي للبيت كان يأتي في المقام الأول، والنص الذي يورده المقري على لسان ابن سعيد المغربي يثبت ذلك، حيث يقول:" ومما اختصت به قراها في نهاية من الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها" [89]، والحرص على الاهتمام بتزيين البيوت من الداخل له ما يفسره، إذ أنّ أطول فترة تقضيها الأسرة الأندلسية إنما تكون داخل البيت[90]، خاصة النساء اللواتي يقضين معظم الوقت في الاهتمام بشؤون البيت من طبخ وغسيل وتربية للأطفال وغيرها، لذا كان من الطبيعي، بل من الضروري أن تأنق البيوت من الداخل فيه تعويض للنساء وكذا الأطفال عن هذه العزلة، إن جاز لنا القول، بما يزيل عنهن الملل والضيق[91].

ومراعاة لحرمة البيت والاحتفاظ بخصوصيته صمم المدخل أو الباب الخارجي على نحو لا يجعله يفضي مباشرة إلى الدار بل يفصله ممر منكسر على شكل حرف "ل" بالعربية أو "L"اللاتينية، حتى لا يسمح للمارة بالتطلع إلى ما بداخل البيت، وكان للناس سعة من أمرهم في تزيين بيوتهم ، كل حسب قدرته، فتكسى من الداخل بزجاج فضي يعرف بالزليجي ذي ألوان متعددة وخطوط هندسية رائعة يقوم مقام الرخام[92].

كانت العناية بالفناء الداخلي أو الصحن بالغة الأهمية، من حيث أنه يعد مركز البيت، فيزين بالرخام ويغرس جزء كبير منه بالأشجار المثمرة وهي البرتقال والليمون، ويزود بطبيعة الحال بالمياه، فتتشكل بذلك حديقة صغيرة خاصة بالبيت، توفر الظل وتلطف الجو في فصل الصيف، مع إضفاء الحيوية والبهجة على المنزل [93]، وقد تُشكل أيضا فضاء للعب الأطفال خاصة صغار السن منهم .

6ـــــــ الحدائق وعلاقتها بالنسق البيئي والوسط العمراني:

اعتبرت الحديقة من المكونات البيئية للمدينة الإسلامية، فهي ذلك الفضاء الأخضر الذي يُكَّون نسقا بيئيا يتصل بالمعالم العمرانية الأخرى، إنها جزء أساسي في يوميات المجتمع الأندلسي، لاسيما طبقة الحكام والأمراء الذين كانوا يسعون إلى الراحة النفسية التي توفرها لهم هذه المساحات الطبيعية الخضراء من خلال تمثل عناصر الطبيعة من ماء ونبات وأزهار وطيور وغيرها، فهذه الحدائق تشكل في حد ذاتها طبيعة مصطنعة أو منقولة في الوسط العمراني إن صح التعبير.

أـ تعريف الحديقة :

تعني الحديقة في اللغة كل أرض بها شجر مثمر ونخل، استدارت وأحدق بها سياج أو حاجز أو حائط، أو هي كل بستان له حائط[94]، وعادة ما تكون الحديقة مرتفعة في ربوة، ويذهب الدكتور يحيى وزيري في كتابه "العمارة الإسلامية والبيئة" في تفسير ذلك إلى أنّ المناطق المرتفعة تجنب جذور الأشجار المياه الزائدة التي قد تؤدي إلى تعفنها، وإصابتها بالأمراض،كما أنّ صرف المياه الجوفية يكون جيدا في المناطق المرتفعة، وحتى في حالة قلة الأمطار فإنّ الهواء البارد مع الرذاذ يفيد أشجار ونباتات الحدائق، فهي إذن شروط طبيعية ومثالية لإنشاء الحدائق[95]، وقد استدل الكاتب في تفسيره بالآية الكريمة ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّـهِ وَتَثْبِيتًا**

مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[96] .

يمكن أن نسمح لأنفسنا بتسمية الحدائق بالعمارة الخضراء[97]، وهذا المصطلح، وإن استعمل في العصر الحديث مع تنامي الاهتمام بالبيئة الطبيعية والبيئة العمرانية،على حد سواء، لما للبيئتين من تأثير متبادل على الإنسان، فإنّ له دلالة تؤكد عمق الصلة والعلاقة المتميزة بين الإنسان والطبيعة[98]، تلك العلاقة التي تتجسد في أي منظر طبيعي جميل يحيط أو يتصل بالعمران .

ج ـ وظيفية الحديقة الإسلامية :

إنّ التراث الإسلامي حمل اهتماما مبكرا بشؤون البيئة تجسد في انتشار الحدائق وتنوع وظائفها وفوائدها، فلم تكن الحديقة في المدينة الإسلامية، أو في غيرها من الفضاءات العمرانية الأخرى مجرد مكان تزرع فيه النباتات وتغرس فيه الأشجار فحسب، بل كان لها أبعاد نفسية واجتماعية و دينية وبيئية وصحية شديدة الصلة بثقافة المجتمع المسلم التي ترجمها سلوكه اليومي في التمتع بالمنظار الطبيعية، فالحديقة الإسلامية هي وسط طبيعي حيوي يشكل راحة واستراحة ومتعة نفسية للفرد المسلم، أين يلتقي بعناصر الطبيعة ماء و نبات وحيوان وطيور، وهو قبل ذلك يستشعر عظمة الخالق بديع السموات والأرض، والتناسق في العناصر الطبيعية المذكورة هو الذي يصنع جمالية المكان، فيشد انتباه الزائر إلى الحديقة ويرغبه في المكوث بها، بحيث أنّ كل عنصر طبيعي يؤدي وظيفة لا تكتمل إلا بترابط العناصر الأخرى.

والأهم من هذا أنّ للحديقة عند المسلمين دلالة رمزية للجنة ونعيمها، وما جاء في القرآن الكريم من ذكر للحدائق وأنواع النبات والثمار مثل قوله سبحانه وتعالى ﴿**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا*حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا** ﴾ [99] فيه محاكاة للوصف القرآني فتظهر هذه الرمزية من خلال تصميمها وما تحويه من أشجار ونبات مزهرة ذات روائح زكية عطرة، وحيوان، وماء منساب في جميع جنباتها في نافورات مختلفة الأشكال والتصاميم الهندسية، علما بأن النظام المتبع في ري الأشجار والنبات كان يتكون من خزانات مائية أرضية موصولة بقنوات، وأحيانا توضع برك مائية في مستوى أعلى في الأرض تتزود منها الحديقة من خلال أنابيب أو قنوات مفتوحة[100]، وتكون في العادة على شكل مجاري مائية صغيرة، ويستفاد في حالات معينة من ماء المطر، فتخصص صهاريج لهذا الغرض، والظاهر أنّ تقنية الري كانت على درجة كبيرة من التنظيم والتطور حسب مقياس ذلك العصر،إذ تسمح بإيصال الماء من شجرة إلى أخرى عبر قنوات صغيرة[101]، ولاشك أنّ الأمر بهذه الكيفية يتعلق بترشيد الماء وعدم تبذيره.

والماء في حد ذاته يؤدي دورين؛ هما سقي النباتات والأشجار لضمان نموها وكذلك ما يحدثه خريريه من وقع في النفس، فصوت المياه الصافية المنسابة من القنوات، أو النافورات يهدئ النفس ويطرب الحواس[102]، فضلا على أنّ منظره يزيد في جمالية الحديقة، وفي هذا السياق لا بد من الإشارة إلى أنّ أمراء الأندلس اجتهدوا في توصيل الحدائق والقصور بالماء عن طريق أنابيب من معدن الرصاص[103]، وكان هذا الماء يجلب من أعالي الجبال مثل جبل العروس القريب من قرطبة[104].

كل هذا شكل صورة مصغرة أو مقلدة للفردوس[105]، فبذلك تطرب القلوب وتنشرح النفوس وتتلذ الأعين لما ترى، وليس من باب المبالغة القول: إنّ حدائق الأندلس كانت أنموذجا لوظائف ودلالات الحديقة الإسلامية، ما دعا البعض إلى تسمية الأندلس "بحديقة الحضارة الإسلامية"[106]، بل إنّ الحديقة شكلت جوهر العمارة الأندلسية وقلبها النابض .

ومن بين أهم مميزات الحديقة الأندلسية هو أنها كانت نظرة دائمة الخضرة، لأنه كان يتم اختيار الأشجار المورقة طوال السنة[107]، وأيضا كان يتم اختيار الورود ذات الرائحة الطيبة[108]،وفي تعدد روائح الورود ما يستجيب كذلك لأذواق الناس في نوع الرائحة التي تروق لهذا أو ذاك .

د ـــــ أنواع الحدائق :

تعددت أنواع الحدائق حسب الأماكن التي أقيمت بها، ويمكن أن نميزها في ثلاثة أنواع؛ حدائق المساجد، و حدائق القصور، وهي الخاصة بالحكام والأمراء، والحدائق العامة وهي التي تصنف ضمن المرافق العامة في المدينة يتردد عليها عامة الناس .

ـــــ حدائق المساجد :

حظي المسجد في الأندلس بعناية فائقة من قبل الأمراء، لكونه يمثل القلب النابض للمدينة الإسلامية وجوهر بنائها، وانطلاقا من مكانته هذه، روعي فيه العناية بالجانب الفني الجمالي، وقد تعززت هذه الجمالية بإدخال عناصر طبيعية حيوية تمثلت في ما سمي بحدائق المساجد، ولنأخذ على سبيل المثال لا الحصر، جامع قرطبة، فبالإضافة إلى التصميم الهندسي الذي كشف عن عبقرية المهندس والبناء الأندلسيين فإنّ لسحر الطبيعة حضورا قويا يترك أثرا واضحا على الزائر وهو يشاهد أشجار البرتقال(النارنج)على طول استطالة المسجد[109]، كما أنّ غراسة هذه الأشجار لم يكن بشكل عشوائي بل بطريقة منتظمة تسهل عملية سقيها[110]، ناهيك عن أنواع عديدة من النبات جلبت من هنا وهناك، وإلى جانب البعد الطبيعي الحيوي لهذه الحدائق من حيث أنها تجعل النفس تستأنس بها وتتمتع بمناظرها، فإنّ لها بعدا دينيا وهو محاكاة الجنة كما سبق ذكره، فكأنما القائمون على إنشائها يريدون إيصال فكرة مفادها أنّ جزاء العبادة الخالصة لله هي الجنة.

واللافت للانتباه أنّ الحدائق ميزت جميع مساجد وجوامع الأندلس تقريبا، منها جامع مالقة الذي غرست فيه أشجار النارنج وجامع ألميرية غرست فيه أشجار الليمون والنارنج وجامع القصبة الكبير بإشبيلية كان له نفس الحظ من هذه الأشجار[111]، ولا شك أن اختيار هذا النوع من الأشجار المثمرة كان له فوائد كثيرة، منها توفير الظلال الوارفة والمنظر الطبيعي الجميل، والفواكه، فأما الفواكه فقد اختلف فيمن له حق أكلها والصحيح عند الونشريسي هو أن كل مسلم يحق له أكلها باعتبار أنّ المسجد لكل المسلمين[112].

ـــــ حدائق القصور و المنتجعات:

لم تكن انشغالات الحكم وهمومه لتصرف الحكام والأمراء في الأندلس عن الانصراف إلى التمتع بحياتهم الخاصة، بل اهتموا غاية الاهتمام بكل ما يجلب لهم السرور والترويح عن النفس، وكانت وسيلتهم في ذلك هي

إنشاء الحدائق والمنتجعات، كتلك الحديقة التي أقامها عبد الرحمن الداخل، وقد أرادها أن تحاكي حدائق دمشق، فجلب لها أنواعا من النباتات من الهند وبلاد الترك والشام مثل الرمان السفري والياسمين[113]، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

وحتى ملوك الطوائف اتبعوا سيرة بيني أمية في الشغف بالحدائق والمنتجعات، فكل واحد منهم ابتنى لنفسه حديقة في حاضرته جعل منها جنة بما احتوته من نبات وحيوان، على غرار المأمون بن ذي النون أمير طليطلة الذي أنشأ حديقة سماها " بستان الناعورة " [114]، وأحضر إليها كل صنوف النباتات والأشجار من المشرق، وقد اتخذ منها، على ما يبدو، حديقة لاستخلاص الأدوية فضلا عن وظيفتها الجمالية والبيئية، من جانبه أنشأ المعتمد بن عباد حديقة سماها" بستان السلطان" [115].

ـــــ الحدائق العامة :

عُرِف المجتمع الأندلسي بعشقه للطبيعة وهو ما ولّد لديه شعور بما يمكن تسميته نزعة التحرر في حياته اليومية في مختلف المجالات، وطبعا لم يكن التحرر بمعناه المطلق أو السلبي حالة معبرة عن كل المجتمع بل عن شريحة عريضة منه، ونعتقد أن هذا التحرر استلهمه من الطبيعة، فالتردد على الحدائق العامة يعتبر جزءا من الحياة اليومية الأندلسيين، أين يجدون راحتهم النفسية ويستمتعون بالمناظر الطبيعية التي توفرها النباتات والأشجار والحيوانات وبرك المياه، ولا يداخلنا شك في أنّه كان يجلب لهذه الحدائق، سواء العامة منها أو تلك الخاصة بالأمراء، أنواع لا تحصى من الورود والأزهار وغريب النبات، فبالرجوع إلى كتاب "الفلاحة" لابن العوام المتوفي سنة 580هـ/1184م يتضح لنا مدى الاهتمام باقتناء هذه النباتات المزهرة ذات الألوان والأسماء المتعددة، فحينما يتحدث عن فنون زراعة الأحباق والرياحين يذكر منها الخيري [116]، و السوسن والنيلوفر[117] والبهار والنرجس والأذريون[118]،و النسرين وغيرها، فالخيري وحده له ثمانية أنواع، وكل نوع بلون[119]، وبالرجوع إلى مقدمة ابن خلدون يتبين لنا أن القصد من غرس هذه النباتات المزهرة على اختلاف أنواعها هو التفنن في الترف في اختلاف أشكالها، وهي من غاية الحضارة على حد تعبير ابن خلدون[120].

خاتمة :

نستنتج مما سبق عرضه في هذا البحث أنّ التفنن في العمارة الأندلسية في الفترة الإسلامية في عصر الدولة الأموية هو نتيجة حتمية فرضتها خصوصية الأندلس الطبيعية والاجتماعية، فالإبداع الذي رافق مختلف المنشآت العمرانية، ونخص بالذكر جامع قرطبة وقصور الأمراء كان يتماهى مع منطق الحضارة التي تستمد أسسها مما تجود به الطبيعية من مقومات، حيث يمتزج الجمال الطبيعي بالإبداع الفني المعماري، ويتفاعل الإنسان مع الطبيعة بإيجابية، لأنّ العمران هو أجل مظاهر الحضارة ،وهو الذي يعرف بالهوية الحضارية للأمة أو الدولة عبر التاريخ ، حيث تتلخص فيه الأبعاد الفكرية والإنسانية للمجتمع .

ثم إنّ قوة الحس الجمالي الذي تميز به حكام الأندلس الأمويون جعلهم يُسخِّرون الطبيعة ويستأنسوا بها لخدمة العمران حيث تمتزج الأصول الجمالية الطبيعية بالمهارة والإبداع الفني المعماري، وما وجود الحدائق في

المدن الأندلسية بكل أنواعها وما تحمله من صنوف وغريب الأشجار والنبات والورود إلا دليل على وجود شعور قوي بتقدير الفرد الأندلسي للجمال، ولا نكون مجانبين للحقيقة إذا قلنا أنّ أمراء بني أمية أعطوا المثل في التأنق والتفنن في العمران،فتنافس من جاء بعدهم من حكام في هذا الشأن، رغم أن الكثير من الفقهاء من عارضوا بنصائحهم هذا الترف المفرط الذي لم تكن فيه من حاجة إلا التعلق بملذات الدنيا.

ومهما يكن من أمر فإنّ هذا التنافس في تشييد المعالم العمرانية وفق معايير فنية وجمالية رائعة حقق مجدا حضاريا للمسلمين في الأندلس، وفي الوقت نفسه شكل تراثا إنسانيا استفادت منه اسبانيا اليوم، إذ أنه مازال أثر هذه العمارة يحظى بإعجاب وتقدير واحترام الجميع،لأن تقدير الفن والجمال هو سلوك حضاري ومشترك إنساني، ومنتهى القول: إنّ الإحساس بالجمال هو منشأ ومصدر الإبداع في الإنسان، والطبيعة هي مادة هذا الإبداع.

الهوامش:

1. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل : لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، مصر، المجلد الرابع ،ص 3101
2. مجمع اللغة العربية:المعجم الوسيط، إشراف شوقي ضيف، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، 1425هـــــــ/2004م، ص 627.
3. سورة، هود، الآية 61.
4. أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة ، ط1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 1429هـــــــ/ 2008م، المجلد الثاني، ص 1552.
5. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل : المصدر السابق ، ص 3103.
6. أحمد مختار عمر: المرجع السابق، ص 1553.
7. مجمع اللغة العربية : المرجع السابق، ص 657.
8. أحمد مختار عمر: المرجع السابق، ص 1553.
9. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: المقدمة، ضبط خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،1421هـــــ، 2001م، ص 509.
10. خلف الله بوجمعة: تخطيط المدن ونظريات العمران، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2016، ص 9.
11. المرجع نفسه، ص 6 .
12. فريد محمود شافعي: العمارة العربية الإسلامية(ماضيها وحاضرها ومستقبلها)، ط1، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية ، 1402هـــــــ/ 1982م، ص 1.
13. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد : المصدر السابق، ص 45.
14. لعرج عبد العزيز:"العمران الإسلامي وعمارته السكنية : قيم دينية ودلالات اجتماعية"، مجلة حولية المؤرخ، عدد 3و4، 2005، ص 81 .
15. أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ط2، دار الفكر، دمشق، 1982، ص 358.
16. محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، سلسلة كتب عالم المعرفة، عدد 128، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1988، ص 216

17. ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر و إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1406هـــــ/ 1986م، ص 36.

18. لعرج عبد العزيز: المرجع السابق ، ص 82 .

19. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، 1997، الجزء الأول، ص 24، السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، 1985، ص 212.

20. يحي وزيري : العمران والبنيان في منظور الإسلام، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ص 79.

21. محمد عبد الستار عثمان : المرجع السابق ، ص 254.

22. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد : المصدر السابق، ص 434.

23. سورة النمل ، الآية 60.

24. يحي وزيري : العمارة الإسلامية والبيئة، سلسلة كتب عالم المعرفة، ص 208

25. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد : المصدر السابق ، ص 433.

26. نوال تركي موسى وبهاء موسى حبيب: "العوامل المؤثرة على تخطيط المدينة العربية الإسلامية"، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية ، عدد 13،الكوفة، العراق، 2013، ص 169.

27. محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ، ص 122.

28. الربض جمع أرباض، وهو في الأصل المكان الذي تبرك فيه الدواب والأنعام ، فيقال مرابض الغنم أو الإبل وغيرها، ويعني كذلك ما حول المدينة ، وهو مصطلح ارتبط بالمدن الإسلامية وتحديدا المدن الأندلسية، يعني ينظر ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل:المصدر السابق، المجلد الثالث، ص1558، 1559، و مصطفى عبد الكريم الخطيب : معجم المصطلحات والألقاب الإسلامية، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 1416هـــ/ 1996 ، ص 205.

29. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص 25 .

30. نور الدين بن مختار الخادمي:علم المقاصد الشرعية، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1421هـــــ/ 2001م، ص 81 .

31. سورة قريش، الآية 1، 2، 3، 4.

32. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، ص 109.

33. جودت عبد الكريم يوسف: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9ـــــ10 م)، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د. ت) ، ص 200 .

34. الزهري، محمد بن أبي بكر: كتاب الجعرافية، تحقيق محمد حاج صادق،(د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر(د.ت)، ص 80.

35. ج .س. كولان : الأندلس، ترجمة إبراهيم خورشيد و آخرون، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1980، ص 76.

36. المرجع نفسه، ص 76.

37. المرجع نفسه، ص 64، 68.

38. المقري، أحمد بن محمد: نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صاد، بيروت، لبنان، 1408هـ/ 1988م، الجزء الأول، ص 143.

39. البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز: المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ/ 2003م، المجلد الأول ،ص386، 387.

40. المصدر نفسه، ص 383.

41. عمر فاروق الطباع: ديوان ابن خفاجة، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان (د.ت)، ص 113، محمد هشام النعسان: "التراث المعماري والعمراني الأندلسي،حدائق المساجد أنموذجا"،مجلة أفاق الثقافة والتراث، عدد 102، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، 2018، ص 98.

42. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ، ص 28.

43. السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1986، ص9.

44. المقري، أحمد بن محمد: المصدر السابق، ص 329.

45. جودة هلال ومحمد محمود صبح : قرطبة في التاريخ الإسلامي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1986، ص 35.

46. هناك اختلاف في السنة التي شرع فيها عبد الرحمن الداخل في بناء هذا المسجد، أو بالأحرى في ضم الجزء الذي تفاوض من اجله مع النصارى، إذ أن البعض من المؤرخين وخاصة المستشرقين اعترضوا على القول بأن المدة الزمنية التي استغرقها اكتمال المسجد قدرت بسنة واحدة على اعتبار أن المساحة التي شغلها المسجد والمقدرة بحوالي 3200م^2 لا تمكن من إتمام البناء في هذا الظرف الزمني القصير، وقد نوه السيد عبد العزيز سالم بهذا الاختلاف بعد استعراض مختلف الحجج التي قدمها، وقد رجح هو أن المدة معقولة بالنظر إلى أن القائمين على هذا البناء كانوا يراعون البساطة، ويتجنبون التعقيدات الزخرفية والفنية التي تطيل عملية البناء، مع العلم أن مواد البناء القديمة كالأعمدة الرخامية والأحجار جلبت من الكنائس المهدمة، ومن جهة أخرى فإن عبد الرحمن الداخل كان يستعجل المهندسين والبنائين في إتمامه حتى يتيسر للمسلمين أداء صلواتهم فيه، ينظر السيد عبد العزيز سالم: " أضواء على مشكلة تأريخ بناء المسجد الجامع بقرطبة "، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، عدد 15، مطبعة المعهد المصري، مدريد، 1970، ص58.

47. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، ص286.

48. فون شاك: الفن العربي في إسبانيا وصقيلية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ط2، دار المعارف، 1985، ص 22.

49. لُقب بالخليفة سنة 316هـ/929م بعدما تبين ضعف الخلفاء العباسيين ومنافسة حكام الفاطميين لهم،فرأى أنّ له الأحقية في هذا اللقب .

50. مجدي خليل محمد البردويل: الإبداع الحضاري للمسلمين في الأندلس في عهدي الإمارة والخلافة، (رسالة ماجستير)، الجامعة الإسلامية، غزة 2014، ص76.

51. السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس،ص 159.

52. المرجع نفسه، ص 160.

53. محمود إسماعيل عبد الرازق: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ، ط 1، سينا للنشر والانتشار العربي، بيروت، القاهرة، لندن، 2000، المجلد3، ص 166.

54. هي الزخرفة النباتية المتشابكة والمشكلة من أوراق صغيرة، تسمى بالفرنسية arabesques، وبالإسبانية ataurique ،ينظر خوليو رييس(المجريطي): الأندلس، البحث عن الهوية الغائبة، ترجمة غادة عمر طوسون ورنا أبو الفضل، مراجعة سري عبد اللطيف، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2014، ص27، السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، ص 406.

55. السيد عبد العزيز سالم : في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص 182.

56. عمر بنميرة: الثقافة والفقه والمجتمع، نماذج من المغرب الوسيط، ط1، جذور للنش، الرباط، المملكة المغربية، 2006، ص 85.
57. المرجع نفسه، ص 77.
58. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد : سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط و محمد نعيم العرقسوسي، ط11، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1417هـ / 1996م، الجزء السابع عشر، ص 474.
59. علي عطية الكعبي:التعايش السلمي بين الأديان السماوية في الأندلس من الفتح حتى نهاية دول الطوائف، ط1، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر، بغداد ، 2014، ص 127.
60. علي مهران هشام: "العمارة الخضراء والتنمية العمرانية المستدامة "، مجلة عالم الفكر، عدد 4 المجلد 34، وزارة الإعلام، الكويت، 2006، ص 216.
61. إسماعيل سامعي: معالم الحضارة العربية الإسلامية ، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، 2017، ص 364
62. عفيف بهنسي:"ما بعد الحداثة والتراث في العمارة العربية الإسلامية "، مجلة عالم الفكر، المجلد 27، عدد2، الكويت، ديسمبر 1998،ص 79.
63. محمد عبد الستار عثمان: "المرجع السابق ، ص 212.
64. محمد بن عبد الله الزركشي: إعلام الساجد باحكام المساجد، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي، ط4، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، 1416هـــــــــــ/ 1966م،ص 337.
65. ليوبولدو توريس بلباس : المرجع السابق، ص 111.
66. السيد عبد العزيز سالم : "العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها "، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، عدد1، 1977، ص 91.
67. أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان ، مطبعة المعارف، مصر 1936 ، ص 122.
68. إبراهيم أحمد إبراهيم مصطفى العطار: الجانب الرياض في الفن الإسلامي كوسيلة لإثراء الإبداع في التصوير،(رسالة ماجستير)، جامعة حلوان، مصر 2004، ص 46.
69. ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر، ص 179.
70. الحميري، محمد بن عبد المنعم : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ط2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان 1984، ص 458.
71. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص 131.
72. المرجع نفسه، ص 132.
73. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، ص 396.
74. محمد سعيد الدغلي:الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، ط1، منشورات، دار أسامة، الإسكندرية ، 1984، ص 55.
75. أولغ غرابار:(نظرتان متضاربتان إلى الفن الإسلامي في شبه الجزيرة الإسبانية)، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط1، مركز الدراسات العربية، بيروت، لبنان، 1998،الجزء الثاني ،ص 848.
76. السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، ص 10.
77. السيد عبد العزيز سالم :في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص165.
78. مصطفى عبد الرحيم محمد سعيد:" أساسيات جماليات تصميم الأشرطة الكتابية في العمارة الإسلامية "، مجلة أفاق الثقافة والتراث، عدد 20و21،مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ذي الحجة 1418هـ/ 1998م، ص147.
79. المرجع نفسه ، ص 150.

80. المقري، أحمد بن محمد: المصدر السابق، ص467، 466.

81. وديع أبو زيدون: تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2005، ص 336، 337.

82. عفيف بهنس: جمالية الفن العربي، سلسلة كتب عالم المعرفة، عدد 14، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، فبراير 1979، ص 175.

83. Jonas Leherman : Earthly Paradise (Garden and courtyard in Islam) , Thames & Hudson, U.K, 1980, p 92, Julio Valderon Baruque : La reconquista, (el concepto de Espana: unidad y diversida) , Pozuelo de Alarcon , Madrid , Espana, 2006, p44

84. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص 46.

85. السيد عبد العزيز سالم :المساجد والقصور في الأندلس، ص 54.

86. ليوبولدو توريس بلباس:"الأبنية الإسبانية الإسلامية"، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية،عدد1، مدريد،1953،ص97، 98.

87. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد :المصدر السابق، ص 216.

88. المسكن أو السكن مشتق من السكون ضد الحركة وهو من فعل سكن أي استقر في مكان معين، ويدل البيت على السكينة أي الهدوء والوقار، ولذلك سمي سكنا أو مسكنا، ينظر ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل: المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص 2052.

89. المقري، أحمد بن محمد : المصدر السابق ، ص 205.

90. حسين يوسف دويدار:المجتمع الأندلسي في العصر الأموي(138 ـــــــــــ 422هـــــ/ 755ـــــــــــــ1030م)، ط1، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، مصر، 1994، ص 264.

91. المرجع نفسه، ص 264.

92. المرجع نفسه، ص 264 .

93. المرجع نفسه، ص 264.

94. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل : المصدر السابق، المجلد الأول ، ص 806.

95. يحي وزيري: المرجع السابق ، ص 215.

96. سورة البقرة، الآية 265.

97. علي مهران هشام: المرجع السابق، ص215.

98. Jonas Leherman : op.cit, p31

99. سورة النبأ، الآية 31، 32. .

100. Jonas Leherman: op.cit ,p.90.

101. Ibid ,p90 ..

102. شفيق أمين بعارة : الحديقة في العمارة الإسلامية (رسالة ماجستير)، جامعة النجاح الوطنية، غزة، فلسطين 2010، ص 88.

103. علوي مصطفى:"دور السلطة الأموية في دعم وتشجيع النشاط الصناعي، في بلاد الأندلس خلال القرنين 3و4هـــــ/ 9 و10 م"، مجلة كان التاريخية ، عدد 13 ، 2011، ص 82.

104. الحميري، محمد بن عبد المنعم : المصدر السابق ، ص 456.

105. يحي وزيري : المرجع السابق ، ص 214.

106. المرجع نفسه، ص 222.

107.المرجع نفسه، ص 222.

108..Jonas Leherman: op.cit ,p91

109.محمد هشام النعسان : المرجع السابق، ص 100.

110. .Jonas Leherman: op.cit ,p 44

111.السيد عبد العزيز سالم: "العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها"، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، عدد1، جوان1977، ص 93.

112.الونشريسي، أحمد أبو العباس بن يحي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1401هـــــــــــ / 1981م، الجزء الحادي عشر، ص 12.

113.شفيق أمين بعارة : المرجع السابق ، ص 27.

114.بودالية تواتية : "الحديقة الأندلسية " مجلة عصور، عدد 24، 25، جامعة وهران 1 ، جوان 2015، ص 61.

115.المرجع نفسه، ص 62.

116.الخيري: بكسر الخاء هو الريحانة طيبة الرائحة وله ألوان مختلفة ، ينظر ابن العوام، أبو زكريا يحي الاشبيلي: الفلاحة الأندلسية، تحقيق أنور أبو سويلم وآخرون ، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني ، 2012، الجزء الخامس،ص 33.

117. هو نبات له أنواع وألوان كثيرة وكل نوع أو صنف له خاصية معينة منه وجد في مدينة شلب يزهر ليلا فيبدو كالسراج ويخبو بالنهار، ينظر أبو الخير الإشبيلي: عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق محمد العربي الخطابي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1995، الجزء الأول، ص 394.

118.الأذريون : نبات زهري أوراقه تشبه نبات الخيري الأبيض، قضبانه أي سيقانه رقيقة ومجوفة، أزهاره ذهبية اللون تميل إلى الحمرة، ينظر ابن العوام أبو زكريا يحي الاشبيلي: المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 309.

119.أبو الخير الإشبيلي :المصدر السابق، ص 120،121.

120.ابن خلدون : المصدر السابق، ص 467.